الجمهوريّة التّونسيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة صفاقس
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

بحوث جامعيّة

مجلّة الآداب والعلوم الإنسانيّة

العددان 16-17
الترقيم الدولي 2811-6585
سبتمبر 2023

بحوث جامعيّة

الجمهوريّة التّونسيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة صفاقس
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

بحوث جامعيّة

مجلّة في الآداب والعلوم الإنسانيّة

العددان 16-17

سبتمبر 2023

بحوث جامعيّة

دوريّة تصدر عن كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

العددان 16-17 سبتمبر 2023

المدير المسؤول :

محمّد بن محمّد الخبو

رئيس هيئة التحرير:

منير التركي

أعضاء هيئة التحرير:

عقيلة السّلامي البقلوطي – محمّد بن عيّاد - منير التركي - محمّد بن محمّد الخبو – مصطفى الطرابلسي – فتحي الرقيق – محمّد الجربي

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

صندوق بريد 1168، صفاقس 3000 تونس

الهاتف : 557 670 74 (216) - 558 670 74 (216)

الفاكس : 540 670 74 (216)

الموقع الإلكتروني : www.flshs.rnu.tn

طباعة : **مطبعة كونتاكت**

الهاتف: 940 975 23 – 333 225 98 - imp.contact2017@gmail.com

ر.د.م.م : ISSN : 2811-6585

الْمَثَلُ في الْقُـرْآن

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾
الزمر 27/39

د. يمينة هلالي*

الملخّص

نسعَى من خلال هذا المبحث إلى دراسة المَثَل في القرآن جِنسًا فنّيّا وثقافيًّا يتداخل فيه المُقدّس والدّنيويّ. فالمَثل يَشُدّك إلى مخزونٍ تاريخيّ واجتماعيّ وثقافيّ مُمَيَّز يتخطّى حُدُود الزّمان والمكان مُتوسّلاً الصّورة والرّمز. يُعدّ المثل في القرآن نصّا دلاليًّا نستخلص منه العبرة والحِكمة لأنّ من وظائفه التّأثير والإقناع، التّرغيب أو التّرهيب.

الكلمات المفاتيح : المثل – القرآن – الرّمز – الصّورة – التّرغيب – التّرهيب.

Résumé

Nous visons à travers ce sujet l'étude de l'exemple dans le Coran en tant que genre artistique et culturel dans lequel se chevauchent le sacré et le profane. En effet, l'exemple nous tire vers un répertoire historique, social et culturel distingué qui transcende les limites du temps et du lieu au moyen de l'image et du code. Dans le Coran, l'exemple est considéré comme un texte indicatif d'où l'on déduit la morale et l'on acquiert la sagesse étant donné qu'influencer et persuader font partie de ses fonctions. La stimulation ou l'intimidation.

Les mots clés : L'exemple, le Coran, le symbole, l'image, la stimulation, l'intimidation.

---

* باحثة مستقلّة في مجال العلوم الإنسانيّة.

Abstract

This study examines the Quranic parables as an aesthetic and cultural genre in which the holy and the unholy mix and intermingle. Parables partake of a special historical, sociological and cultural repertoire that transcends the boundaries of time and space through its imagery and symbolism. Thanks to their influence, persuasiveness, and enticement (targhīb) or intimidation (tarhīb), parables in the Quran are a significant source of didacticism and wisdom.

Keywords : Parable, Quran, symbol, image, enticement (targhīb), intimidation (tarhīb)

مقدّمة

المثَلُ في القرآن مَبحث مُغر بالدّراسة لِما له من أهمّيّة في بنية الخطاب القرآنيّ. فقد كانت للمثل مكانته في لغات الشعوب وثقافاتها قبل الإسلام وبعده، والنصّ القرآنيّ المؤسِّس للثقافة الإسلاميّة استخدم المثل ووظّفه حلقة في سلسلة تلك الثقافات اتّصالاً وتفاعُلاً.

والمثَل في السياق القرآنيّ ابن بيئته لأنّه كان شائعًا مألوفًا في المحضن العربيّ للإسلام، وظلّ القرآن نصّا مؤسِّسا يُخاطب قومه بما يفهمون لأنّ "التأثير بالكلام المُتخيّر، حَسَن الصياغة والتّأليف في أفكار النّاس وعزائمهم قد ازدهر عند العرب الجاهليّة وأنّ هذا الفنّ قد اشتمل أيضًا على بذور النموّ الأدبيّ المتأخّر"[1]، لذا اتّخذ القرآن نهج العرب في ضرب الأمثال لشيوعها واستحواذها على فنّهم شعرًا ونثرًا.

[1] كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجّار، دار الكتاب الإسلامي، ط2، ج1، ص129.

تُفصح الأمثال عن مخزون تاريخيّ واجتماعيّ وثقافيّ من خلال وظيفتها في نقل عادات الشعوب وتقاليدها وأنماط عيشها، وفي التعبير المُختصر عن أوضاعها وأحداثها وآمالها، فالنصّ المَثَلِيّ جنس فنيّ وثقافيّ عريق مُوجَز في كلام العرب استخدمه القرآن جسر تواصل مع سائر الثقافات الأخرى على اختلاف مشاربها وخصائصها.

يقوم منهج بحثنا في هذه المسألة على تعقّب "المثل" في السور والآيات القرآنيّة ضمنا وتصريحا وقوفا على غِنَى النصّ المؤسِّس وسياقاته المتّصلة باستخدام المثل خطابا وأساليبَ ووظائفَ، فكان لزامًا علينا دراسة المثل نصّا دلاليّا وتأويلاً ثقافيّا ورسوخًا ذهنيًّا في المخيال الإسلاميّ.

I. خصائص المثَل في القرآن

1. في تعريف المثَل وتصنيفه

ورد في لسان العرب أنّ المثل هو "الشيء الّذي يُضرب لشيء مثلاً فيُجعل مثله"[1]. و"مثّلتُ الشيءَ بالشيءِ إذا قدّرته على قدره، ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيهًا به"[2]. والمثل إعطاء شيء منزلةَ شيءٍ آخرَ وخصائصه ببيان وجه الشبه بينهما. والأصل في المثل النَّظير، "والمثال في معناه المختصّ به ليس هو المُمَثَّل بل دليل عليه فهو يُوافقه من بعض الوجوه لمناسبةٍ بينهما ويُخالفه من بعضها لمباينةٍ بينهما"[3].

داخلت المَثَلَ مفاهيم حافّة منها: أوّلا التّشبيه لأنّ كلّ تمثيل هو تشبيه لكن ليس كلّ تشبيه تمثيلاً. يقول صاحب مفتاح العلوم: "إنّ التّشبيه متى كان وجهه

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت 1994، 15 جزء، ج11، مادّة (مثل)، ص611.

[2] نفسه، ص ص 613- 614.

[3] بطرس السدمنتي، المقدّمة في التفسير، دار المشرق، ط1، بيروت/ لبنان، 1972، ص39.

وصفًا غير حقيقيّ، وكان مُنتَزَعًا من عدّة أمور، خُصّ باسم التّمثيل"[1]، وثانيًا الحكمة مُستخلصة من تجارب الأوّلين. يقول صاحب جمهرة الأمثال: "إنّ كلّ حكمة سائرة تُسمّى مَثلاً، والكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثُر دورانها على الألسُن تكون مثلاً"[2]، وثالثًا الصفة لأنّ مثل الشيءِ صفته كقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقُوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[3]. وقد دلّت على المثل مفردات مثل العبرة والحقّ والآية:﴿لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[4].

أمّا المثل اصطلاحًا فتشبيه لبلوغ معنى جرى مجرى العبرة أو الحكمة بهدف التنبيه والتأثير والإقناع، ويكون التّمثيل فيه بالإنسان أو الحيوان أو الجماد أو النبات أو غيره. ومن خصائصه أنّه يُرغَّبُ فيه أو يُرغَّبُ عنه لأنّ فيه وعيًا وتبليغًا وهداية بحسب موضوعه، ومنها في المجال الدينيّ الحياة والموت والإيمان والكفر والدنيا والآخرة والفضائل والشهوات وغيرها. والأمثال "قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كَلِمِها، ونوادر حِكَمها، وزُبدة حوارها وبلاغتها التي أَعربت بها عن

---

[1] السكّاكي، مفتاح العلوم، دار مصطفى الحلبي، ط1، القاهرة، 1937، ص 164.
يقول محمّد جابر الفيّاض: "ليس بوسعنا أن نعدّ كلّ تشبيه أو تمثيل مثلاً، كما ليس بوسعنا أن نعدّ الأمثال مجرّد تشبيهات وتمثيلات فقط". الأمثال في القرآن الكريم،دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط1، بغداد، 1988، ص132.

[2] أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، اسطنبول، ط2، 1988، ج1، ص 27.
ويقول الفارابي (ت 338هـ/950م): إنّ المثل "من أبلغ الحكمة لأنّ النّاس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النّفاسة". جلال الدّين السيوطي، المُزهر في علوم اللّغة وأنواعها، دار إحياء الكتب الإسلاميّة، بيروت، (د.ت)، ج1، ص288.

[3] الرعد35/13. "قال أبو إسحاق: معناه صفة الجنّة، وردّ ذلك أبو عليّ: قال: لأنّ المَثَلَ الصّفة غير معروف في كلام العرب إنّما معناه التّمثيل". ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادّة (مثل)، ص611.
وفي قوله: "ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل أي صفتهم". نفسه، ص612.

[4] البقرة 259/2.

القرائح السّليمة والرّكن البديع إلى دراية اللّسان حيث أعجزت اللّفظ وأشبعت المعنى وقصّرت العبارة"[1] وهي أصناف.

تكون الأمثال طبيعيّة وقصصيّة ورمزيّة مُستخلصةً من الواقع حاملةً ثنائيّة المثل الحقيقيّ والمثل الرمزيّ: المثل الحقيقيّ يقصد به الباثّ الإقناع بتجارب الآخرين،الواقعيّ منها والرمزيّ، وعندما يغيب الباثّ أو يصمت في مواضع يُعوّل المتقبّل على خياله للوصول إلى المعنى لأنّ الإله عندما "يُغادر العالم ويتوقّف عن إعطاء دلالة لعظمته، فإنّ العالم يسعى بنفسه إلى الظهور بوجه آخر وأن يكشف عن عمق المخيال"[2].

ومع اختلاف أساليب المثل في القرآن تعدّدت صوره عن طريق جودة التشبيه والدلالة وحسن التعبير والكناية إغراءً للنفس بالحقّ وترهيبًا لها بالإثم. أتى المثل من خلال إيجاز اللفظ وإعجاز المعنى، وظلّ يتماشى والأفهام على تفاوت درجاتها فتراوح بين البساطة والتعقيد، ووضوح المقصد وغموضه، خاصّة عندما تغيب عنه الصورة التمثيليّة فيُعوَّل عندها كليّا على خيال المتقبّل وقدرته على التأويل في دعوةٍ ضمنيّة إلى النظر والتأمّل في الآيات، وبهذا قد يعسر دور النصّ ليبدأ دور المخيال البشريّ والتعويل على الذاكرة الجمعيّة والفرديّة.فالأمثال تتضمّن دلائل عميقة ترد مُختصرة لكنّها دالّة على أمور كليّة تحمل معنى ظاهرًا يكون لفظه صريحًا ومعنى خفيّا لا يُذكر صراحةً إنّما يُفهم من سياق الكَلِم ودلالته بفضل الإعجاز الكامن في ثنايا المعنى وطيّات التوظيف ورموز الإشارة الخاطفة الّتي هي ذُروة البيان وبلاغته، وإن احتاجت إلى جهد في الاستنباط والتأويل استنادا إلى قرائن وعلامات بيّنة ومضمَرة.

---

[1] جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008، ج1، ص2.

[2] Marcel Gauchet,Le désenchantement du monde ; une histoire politique de la religion, Éditions Gallimard, 1985, Cérès édition, Tunis, Décembre 1995, p351.

يُصنَّفُ المثَل إلى ثلاثة أصناف:أوّلها المثل السّائر الّذي يتأتّى من تجربة واقعيّة ويعبّر به عن تجربة مماثلة، ومنها المثل الشعبيّ. تقول العرب: "كلّ حزب بما لديهم فرحون" الروم 32/30، ويمكن أن يرد هذا المثل السّائر شعرًا ومُرسلاً لا يُصَرّحُ فيه بلفظ التشبيه. يقول أبو إسحاق النظّام (ت231هـ/ 845م) عن المثل السّائر: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللّفظ وإصابة المعنى وحسن التّشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة"[1]، وثانيها المثل القياسيّ أو ما يُسمّيه البلاغيّون التّمثيل المركّب لأنّ فيه إطنابًا وتشبيهًا لتقريب معقول من محسوس أو محسوس من محسوس مثل قوله: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2]، فالمثل القياسيّ قد يكون صورة بيانيّة، أو سردًا وصفيًّا فيه من التشبيه والتّمثيل المركّب المتضمّن قصّة، وثالثها المثل الخرافيّ وهو عبارة عن حكاية ذات طابع خياليّ تُبنَى على شخوص حيوانيّة أو خارقة لكنّ المقصود منها دائما هو الإنسان.

2. ضرب المثل في القرآن

يبثّ المثل تعاليمه استنادا إلى ثنائيّات منها الحلال والحرام والطيّب والخبيث والطاهر والنجس، وهي ثنائيّات تُسْهِمُ في بنائها جملة من "المواضع أو ما يُشبه المواضع الّتي لا يمكن للمؤمن إلاّ أن يخضع لها ويتقيّد بها ويوافق عليها. فهي معانٍ مسكوكة لكن على وجه المجاز شأن المعاني الحافّة الّتي للألوان (كالبياض والسواد) والاتّجاه (كاليمين والشمال) والرتبة (الأعلى والأسفل)"[3].

---

[1] ابن قيّم الجوزيّة، الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق سعد محمّد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص 33.

[2] النحل 112/16.

[3] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، منشورات كليّة الآداب بمنوبة، تونس، 2001، ج2، ص603.

وللمثل في القرآن أهداف يُفصِح عنها الرّمز والمجاز يتبيّنها القارئ من خلال استقصاء معنى "ضَرَبَ" في لسان العرب، فالضّرب هو "المِثْلُ وَالشّبيه"[1]. تقول العرب: ضَرَبَت العقربُ إذا لدغت، وضَربَ العِرقُ والقلبُ إذا نبض وخفق، وضرَبَ الجُرْحُ إذا آلَمَ[2]، وضَرَبَ الرّجلُ في الأرضِ إذا سافر وارتحل ابتغاءَ الرّزق، وضرَبَ "في سبيل اللهِ نَهَضَ"[3]. وضرْبُ المَثل فيه من الألم ما يُحرّك سواكن الأفئدة والعقول، فيُعيد إليها النبض والخفقان إحساسًا وحياةً بعد بلادَةٍ وخمولٍ ويرتحلَ بها من حال هي في أسفل سافلين إلى أعلى علّيّين، هي رحلة ينظر فيها المُخاطَبُ إلى وضع الأمم السابقة ابتغاء معرفةٍ وموعظةٍ فينهض بوضعه ويعقِل الحقائق. يقول الترمذي(ت279هـ/ 892م): "فإذا أَخذَت النفس في التذبذب والتّمايل والاهتشاش إلى ما تَصوَّر وتَمثَّل لها في الصدر تحرّك القلب وتمايل من وصول تلك اللذّة إليه، فإذا لم يكن في القلب شيء يُثقِلهُ ويُسكِّنهُ مال إلى النّفس، فاتّفقا واتّسقا على تلك الشّهوات، فإن كانت تلك مَنْهيًّا عنها برز إلى الأركان فِعلُها، فصارت مَعْصِيَةً وذنْبًا"[4].

إنّ من وظائف المثل الأخلاقيّة تجنّب تراجع القيم وتَردّيها، فالمثل تُقاس به الحال مدحًا أو ذمًّا، نفعًا أو ضرًّا، تذكيرًا أو وعظًا، حثًّا أو زجرًا، تأييدًا للحقّ وتركًا للباطل لأنّ هدف المثل من هدف النصّ المؤسِّس باعتباره تشريعًا للهداية والإصلاح وتأكيدا على وحدة الله وحقيقة الحشر والبعث. ووظيفة المثل التربويّة في الآيات القرآنيّة شأنها شأن مثيلتها في النصوص الأدبيّة "يُبسَطُ فيها اللّهو على

[1] ابن منظور، نفسه، ج1، مادّة (ضرب)، ص548.

[2] نفسه، ج1، ص543.

[3] نفسه، ص545.

[4] الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنّة، حقّقه وعلّق عليه وقدّم له السيّد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت/ لبنان، (د.ت)، ص15.

ظاهر المَثل كالشِّراك أملاً في اقتناص الأذهان السّاذجة أو المُهَج العابثة لاقتيادها تدريجيًّا إلى دفائن الحكمة"[1].

يُبلّغ النصّ القرآنيّ أمثالاً لمُتقبّل يُفترَضُ أنّه ساذَج، فيُسهّل عليه الفهم ويُبيّن له المعنى حتّى يكون المغزى من المثَل اعتباريًّا في تشكيل الذّهنيّة الإسلاميّة وتثبيتها، فالأمثال يعقِلُها العالمون العارفون فيوجّهون همّتهم وعقولهم إلى ما فيه صلاحهم وخروجهم من الظّلمات إلى النور. وقد صنّف الشاطبي (ت790هـ/ 1388م) في الموافقات ضرب الأمثال ضمن علوم العرب التي صحّحت من خلالها الشريعة ما هو صحيح ونافع وأبطلَت ما هو باطل وضارّ[2].

إنّ في المثل تذكيرًا ووعظًا وحثًّا وزجرًا واعتبارًا ومدحًا وذمًّا وثوابًا وعقابًا وتفخيمًا وتحقيرًا وتحقيقًا وإبطالاً لأنّ هدفه الارتقاء بصورة الإنسان النموذج عبر الإلمام بدقائق الأوصاف والتركيز على الجزئيّات لتقريب الصورة المثَلِيّة من الأذهان تقريبًا يعتمد الدقّة والخصوصيّة ممّا يقتضى مقاربة مُختلف أساليب استخدام المثل استنادًا إلى التصوّرات الرمزيّة الصريحة والضمنيّة، لأنّ من أهداف المثل استحضار الحالة المشبّه بها[3]. ففي المثل صنعة وإلغاز وشروط وقواعد كأن يكون اللّفظ مُوجزًا والتشبيه حسنًا، وأن تتوفّر فيه إصابة المعنى وجودة الكناية، عندها يسعى المُخاطِب إلى جلاء الفكرة دون إسهابٍ في العرض أو تكرارٍ خَلَلاً

---

[1] توفيق بكّار، المنهج الجدليّ في تحليل القصص "جدليّة الحكمة والسلطان"، نُشر ضمن أعمال ندوة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة القراءة والكتابة 1982، منشورات جامعة تونس1، ط تونس 1988، ص 70.

[2] أُنظر الشاطبي، الموافقات، ج2، ص ص 72-73. يقول: من بين هذه العلوم "علم النجوم وعلم الأنواء وأوقات نزول المطر وعلم التاريخ وأخبار الأمم الماضية وعلم العيافة والزجر والكهانة وعلم الطبّ وفنون البلاغة".

[3] أُنظر محمّد إقبال عروي، من قضايا النقد القديم: الحكمة والمثل، المفهوم والعلاقة والتغريض، آفاق الثقافة والتراث، عدد34، 2001، ص57.

وقصورًا لأنّ التكرار يخدم الصّورة المثَليّة ويُدعّم الفكرة شأن تكرار مفردات "النور" و"الظلمات" و"وابل" وغيرها تبسيطًا للمعنى وتأكيدًا له.

يكشف المثل حقيقة الصورة ومعقوليّتها ويُبسّط المعنى ويُقرّبه من الأذهان ويعكس الحضور في الغياب فيتحقّق التأثير والإقناع ما دام التمثيل يُبيّن المعاني في صورة حسيّة تستقرّ في الأذهان، ومن البديهيّ أن تتكامل جماليّة صورة المثل الفنيّة وعمق تبليغ الفكرة لتُقسّم المثل إلى مجالَيْن:أوّلهما السلوك الإنسانيّ، وثانيهما الخلق والخالق لأنّه مجال يحمل حقائق ربّانيّة ليست حكرا على النصّ القرآنيّ. يقول جيلبار دوران عن الأمثال الواردة في الأناجيل: إنّها "مجموعات حقيقيّة رمزيّة عن الملكوت"[1]وكذا الأمثال الواردة في القرآن التي ترمز إلى الحقائق الربّانيّة.

يعبّر المثل في القرآن عن التّكامل بين الجماليّ والدلاليّ، وهو أكثر تأثيرا من الخطاب العاديّ في تقريب الصورة وتحريك النّفوس وإثارة الأفئدة. إنّه لاذع في الذمّ، مُبهر في الحجاج، بليغ في الوعظ، مُقنع في المدح، له وظيفة فنيّة جماليّة و"وظيفة تزيينيّة" (Ornementale)[2] على حدّ عبارة جيرار جينات Gérard Genette، وهو يتميّز بدقّة التصوير في أبعد جزئيّاته الحركيّة والنفسيّة لأنّ أسلوبه يُطابق مُقتضى الحال في فصاحته وبلاغته التي تخدم المعنى وتُبلّغ المقصد. يقول الترمذي: إنّ المثل وُظّف "بقصد الإفهام والتفهيم والتوضيح والبيان في روعة بلاغيّة يقف عندها ويتقاعس إزاءها فهمُ وعقلُ وفكرُ البشر من روعة وقدسيّة ما يحتوي السمع إذ ينتشي ويغتبط الفؤاد وينشرح الصدر إجلالاً وخشية للحقّ"[3].

---

[1] جيلبار دوران، الخيال الرمزي، ترجمة علي المصري، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات، ط1، بيروت، 1991، ص8.

[2] Gérard Genette, Frontières du Récit, Communications, N°8, Seuil, Paris, 1966.

[3] السيّد الجميلي، مقدّمة كتاب الأمثال من الكتاب والسنّة، ص5.

يضرب النصّ القرآنيّ الأمثال في أسلوب فنّيّ يُكرّس الموعظة عن طريق التأويل الدّلاليّ محاكاة (Mimésis) لواقع نُسجت أطرُهُ وبُنيت شخصيّاتُه وأحداثُه بأسلوب مشوّق لا يغفل عن إبراز الانفعالات النفسيّة مثل الشعور بالخوف والرهبة. فالنفسيّة الجمعيّة تعكس وضع شعوب بأكملها. يقول: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1]. ويقول: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2]، تعكس الآيتان نفسيّة كلّ من الفريقيْن: فالمؤمنون يعيشون في أمن وطمأنينة ورغد عيش،والكفّار يعيشون في جوع وخوف. يقول محمّد أركون: "في القصص ذات المستوى الأدبيّ الرفيع نجد أنّ الحكاية متقشّفة وموجّهة نحو التأسيس وضرب المثل والقدرة بالمعنى المثاليّ للكلمة. ولكن مع ذلك فإنّها لحقيقة واقعة أنّ الخطاب القرآنيّ لم ينفكّ يُحدث خلال قرون عديدة على السّامع آثارًا نفسيّة وبسيكولوجيّة عميقة مشابهة لتلك الآثار التي يُحدثها كلّ اختراق للنظام الوجوديّ أو الطبيعيّ ضمن معنى الشيء الأكثر قوّة والأكثر دوامًا والأكثر تمامًا والأكثر جمالاً والأكثر دلالةً"[3]. فما هي مميّزات القصص المثليّ في القرآن؟

3. المثل في القصص القرآنيّ

يتضمّن المثل في القرآن خطابا غايته تحقيق دلالاتٍ ووظائفَ متعدّدة الخصائص الواقعيّة والقصصيّة. أمّا الخصائص الواقعيّة فتكمن خاصّة في الرسالة المثليّة شُخوصًا ووقائعَ لشحن ذهن المتلقّي بذاكرة تحمل صورًا مُفعمة بالحياة عن واقع بعينه لترسيخه تأثيرًا وإقناعًا كي لا تخونه الذّاكرة لأنّ "الصورة أكثر التصاقًا بالواقع، وأكثر قدرة على التّعبير عنه، إنّها تتميّز بجانب ماديّ ملموس على خلاف

---

[1] الزخرف 17/43.

[2] النحل 112/16.

[3] محمّد أركون، الفكر الإسلاميّ: قراءة علميّة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987، ص206.

العلامة اللّغويّة"[1]، والواقعيّة إمّا في طريقة تنقل أنباء الأوّلين ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾[2] فالنصّ القرآنيّ يجعل تجاربهم عبرة ومثَلا، أو في كونيّة تنقل حياة زُرعت في كائن ما.

تتنوّع السجلّات اللغويّة والأساليب البلاغيّة الحاملة للأمثال من خلال معجميْن نباتيّ وحيوانيّ. يقول ابن الأثير (ت630هـ/1233م): "إنّ العرب لم تضع الأمثال إلاّ لأسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يُعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجزَ منها، ولا أشدَّ اختصارًا"[3]،كما يُعتَمَد في ضرب الأمثال الماضي بتذكّره والمستقبل بتوقّعه، يقول القرآن:﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[4]، ويقول: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[5]، و﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾[6].

يتضمّن المثل زمنًا منتظمًا شأن مثل القرية الآمنة التي يأتيها رزقها رغدا ثمّ كفر أهلها بنعم الله فأذاقهم الجوع والخوف،أو متجاوزًا للنسق العاديّ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ

---

[1] سيزا قاسم، القارئ والنصّ- العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ص 209.

[2] الزخرف 8/43.

[3] ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، ط2، الرياض، 1983، ج1، ص 75.

[4] البقرة 214/2.

[5] القارعة 4/101.

[6] القمر 7/54.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] فالمثل في القرآن يخضع للزمن المطلق فتكون الرسالة مطلقة، أو للزمن المقيّد فتكون الرسالة مقيّدة الزمن أو موجّهة إلى فئة ما[2].

وقد يرتبط الزّمن في المثل بمكان عامّ شأن الأرض (ضمن حديثه عن الدّنيا) أو الجنّة (ضمن حديثه عن الدّنيا والآخرة) أو مكان محدّد﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[3]،لأنّ "القرآن قد يغيّر من أسلوب خطابه الدينيّ من مكان لمكان ومن وقت لوقت، ودلّل على ذلك بالاستشهاد باختلاف الخطاب الدينيّ في الموضوعات والأسلوب ما بين القرآن المكّيّ والقرآن المدنيّ، فالقرآن المدنيّ لم يعتمد أسلوب الزجر ولم ترد به كلمة "كلاّ"، وهذا يدلّ على أنّ الخطاب يتغيّر"[4] تغيُّرًا يؤدّي إلى تنوّع الأسلوب بحسب مقاصد الخطاب وأهدافه، ظاهرة كانت أم خفيّة، المؤثّرة ترغيبًا أو ترهيبًا في ذهن المتلقّي ووجدانه. ولممارسة هذا التأثير يسعى المخاطِب إلى معرفة شخصيّة المخاطَب وانتمائه عبر استخدام الأسلوب الأكثر تأثيرا، وبهذا تبلغ سيطرة المثل ذروتها، لِمَ لا والمُخاطِبُ فيها الذات الإلهيّة الّتي يُفتَرض أنّها تعلم عن المخاطَب ما يُظهر وما يُضمر؟ ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[5].

ومن خصائص المثل القرآنيّ إطلاق التجارب الوجوديّة المتّصلة بسرائر الإنسان وعلاماتها النفسيّة، ففي المثل أجوبة عن تساؤلات وجوديّة عبر صور قرآنيّة لموجودات تعكس قدرة الخالق وعظمته،و"الأمثال عون الإنسان على الحياة في

---

[1] البقرة 259/2.

[2] أُنظر عبد الهادي الشهري، استراتيجيّات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، لبنان/ بيروت، مارس2004.

[3] يس 13/36.

[4] سعيد الكرواني، نحو تجديد الخطاب الديني، تأسيس البنية الحواريّة وحقّ الاختلاف، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، المغرب، 2007، ص ص 26-27.

[5] آل عمران 119/3.

صراعه معها، واستجابة لدواعي المعرفة فيه"[1]ففي الأمثال قصص لا تموت، تتجدّد بأسطرتها وتاريخيّتها لأنّ "الزّمن الأسطوريّ زمن يعود بصفة دائريّة والزّمن التاريخيّ زمن في تقدّم مستمرّ"[2] والأسطورة تجمع الصور الرّمزيّة وتنتقي السّلوك المثاليّ لشخصيّاتها وتقدّمهما للفرد والمجموعة قيمة خاصّة بحسب الحاجة و"الذي يتغيّر في الأسطورة ليس محتواها أو رموزها وإنّما طبيعة المخيال فيها، ذلك أنّ المخيال يكتسي طابعًا وظيفيّا تتأكّد الحاجة إليه زمن الأزمات الخانقة والتوتّرات الشّديدة"[3] وهو زمن الحاجة إلى المثل القرآنيّ.

أ- الوصف والسّرد

يتداخل الوصف والسرد في المثل القرآنيّ ويتكاملان في إنتاج عناصر تشدّ المتقبّل في محاولاته التأويليّة للبحث عن الدّلالة[4]، ويتّسم هذا المثل بنظام تشكيل قصصيّ فيه "استيلاء للمعجم الوصفيّ"[5] الّذي ينتقل بالمتقبّل من الرّمز إلى المعنى، الرمز باعتباره تقنية بلاغيّة جماليّة أبرزها رولان بارت Barthes Roland[6]، وهو يساعد في تأدية وظيفة حجاجيّة باعتبار أنّ الوصف في العبارة المثَليّة مجاز

---

[1] محمّد جابر الفيّاض، الأمثال في القرآن الكريم، ص92.

[2] Claude Lévi- Strauss, Anthropologie Structurale. Plan. Paris 1974. p230.

لا نقصد من قول ليفي ستراوس Levi-Strauss أنّ القصص المثليّ في القرآن من الأساطير الخياليّة وإنّما نقصد ما ذهب إليه جون بول سارترJean-Paul Sartre من أنّ "المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن الحدث التاريخيّ تُفقد هذا الأخير ماديّته وتُحوّله وفقًا لذلك إلى زمن أسطوريّ نحمله في ذواتنا". أُنظر Jean-Paul Sartre, Qu'est –ce que la littérature ? Gallimard. Paris 1948. p 48.

[3] محمّد أركون، الفكر الإسلامي؛ نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار السّاقي، بيروت/ لبنان، ط2، 1992، ص212، هامش 96.

[4] أُنظر Philippe Hamon, Introduction à l'analyse du descriptif, Hachette, Paris, 1981, p85.

[5] أُنظر Liliane Louvel, Nuances du Pictural,Poétique, N°126, Seuil, Paris, Avril 2001 .

[6] أُنظر Philippe Hamon, La Description Littéraire de L'Antiquité à Roland Barthes une Anthologie, Macula Littérature, Paris 1991, p248.

للحجّة[1]،ولذا يمكن أن يُفسَّر المثل بالوصف والنعت[2]كما في قول القرآن: ﴿سِمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[3]. وفي قوله:﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[4].

يحتوي الخطاب السرديّ في المثل على ثلاثة عناصر وهي:

أوّلا : المُخاطِب وهو الله الّذي يمتلك المعرفة الكليّة بظاهر الأمور وباطنها، وهو المحدّد لغة المثل وأسلوبه ضمن نوع من العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب يضبطها المخاطِب، لأنّ الأوّل "إذا كان مُستعينا على إبلاغ غرضه بما يستحوذ على قلب جمهوره من بثّ عاطفة وإثارة خيال، ويستهوي عقله من منطق سديد وبرهان أكيد وحجج لا يقف بوجهها ريب ولا شكوك"[5] حقّق غرضه من خطابه فنّا ودلالة. والله/ المخاطِب قد يتوخّى أحيانا وبإرادته نهج الحوار الأفقيّ مع عبده/ المخاطَب ويعمد إلى الإبلاغ من طريق الترغيب وبثّ العاطفة، رغم كونه في الغالب يحاور بطريقة عموديّة أمرًا ونهيًا.

ثانيًا : المتقبّل الّذي قد تكون له ردّة فعل إزاء أساليب الخطاب ومضامينه يجد في ذاته أفعالاً وانفعالا، والمتقبّل في هذا المقام هو الإنسان لأنّ القرآن "لمّا خاطب كلّ فئة بالطريقة التي تفقه بها الأمور فإنّه قد عبّر عن تلك المعاني العويصة بضرب الأمثال عليها، كيْ يُتاحَ فهمها لجميع النّاس"[6]. يقول: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ

---

[1] أُنظر.Olivier Reboul, Introduction à la Rhétorique, P.U.F, Paris, 1994, p77

[2] أُنظُر جار الله الزّمخشري، أساس البلاغة، ج4، ص329.

[3] الفتح 29/48.

[4] الرعد35/13. "قال أبو إسحاق: معناه صفة الجنّة، وردّ ذلك أبو عليّ: قال: لأنّ المَثَلَ الصّفة غير معروف في كلام العرب إنّما معناه التّمثيل". ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادّة (مثل)، ص611. وفي قوله: "ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل أي صفتهم". نفسه، ص612.

[5] سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981، ص602.

[6] علي حرب، قراءة ما لم يقرأ- نقد القراءة، الفكر العربي المعاصر، عدد 60، 1989، ص ص 44- 45.

فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1] و﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[2] ولم يَقلْ: "الأمثال" في المُطلق لأنّه قصد أشباههم ونظائرهم فِعلاً وَقَولاً.

ويضطلع هذا المتقبّل للمثل بوظيفة تحصيل المعاني والدّلالات عبر تفاعلٍ تأويليّ وبفضل قدرته على تخيّل ما أبانه المُخاطِب وأضمره[3]. ففي التخييل صور يتعرّف عبرها الإنسان إلى ذاته لأنّها تعكس آماله وتخوّفاته[4]. يقول الترمذي: "فإذا ضُربت للنفس الأمثال صار ذلك الأمر لها بذلك المَثَل كالمُعاينة، كالّذي ينظُر في المرآة فيُبصر فيها وجههُ، ويُبصرُ بها من خَلفه لأنّ ذلك المثلَ قد عاينه ببصر الرأس"[5].

ثالثًا : إنّ رسالة المثَل وموعظته تُوفّر للمتلقّي مبدأ القياس بين المشبِّه والمشبَّه به بفضل ما بينهما من قرائن دالّة. فرسالة المثَل غنيّة بالأساليب التصويريّة ومعاجمها وأدواتها اللفظيّة والرمزيّة المُختلفة ألوانًا وأشكالاً وأبعادًا،وهي في السياق القرآنيّ تغرف من معين عقديّ مُشبَع بالتعاليم والأحكام والقوانين والأوامر والنواهي، ونصّ الأمثال جزء من هذا النصّ القرآني الزاخر، وهو في مستوى التحليل الموضوعيّ ملفوظ القول المثَليّ الّذي تحمله آيات الأمثال في سياقيْها الخاصّ والعامّ، من خطاب قرآنيّ عامّ إلى خطاب قرآنيّ أخصّ رسالته مَقُول القول في المثَل نفسه، في مختلف مستوياته الدينيّة والأخلاقيّة والنفسيّة بهدف تلبية حاجة الإنسان وتبديد مخاوفه وفرض قيود ومحظورات عليه[6]. وإذا كان نصّ الرسالة المثليّة في القرآن ملفوظا فإنّه لا يكتمل إلاّ بتوفّر اللغة

---

[1] الزمر 27/39.

[2] محمّد 3/47.

[3] أُنظر ما ذكرته ميشلين براون حول قدرة القارئ على التأويل: Micheline, Tison- Braun, Poétique du paysage, essai sur le genre descriptif, Librairie A.G, Nizet, Paris, 1980, p70.

[4] أُنظر Gilbert Durand, L'imagination symbolique, P.U.F, 3ème éd, 1993, p125.

[5] الترمذي، نفسه، ص16.

[6] سيجموند فرويد، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي، مدارك، 2014.

الوظيفيّة التي يسعى الخطاب من خلالها "إلى اختيار كلمة دون أخرى من مرادفاتها، فيرمي إلى مزيد التأثير في ذهن المتلقّين على أساس أنّ الكلمة المختارة أعلق بعالم خطابهم وأمضى أثرا فيه"[1] باعتبار ما للخطاب القرآنيّ من دور وظيفيّ في التبليغ والتذكير والحجاج والزجر والتحريض وغيره.

ب- الصّورة والرّمز

يزخرُ المثل القرآنيّ بالصّور والرّموز الموظّفَة لتبليغ المعنى في صلة حميمة بالواقع "وأبلغ الوصف ما قلب السّمع بصرًا"[2]. فللصّورة سلطة وظَّفها الخطاب القرآنيّ المثَليّ للتّأثير والإقناع عبر رسالة دينيّة أخلاقيّة توسّلت التشبيه أداةً لتوظيف صفات المشبَّه به لكشف سمات لدى المشبّه، لذا تُعالَج الصورة المثَليّة القرآنيّة تحليلاً ومقاربةً من زاوية محدّدة[3] في صلة "بالنّجاعة الحجاجيّة التي للصورة في القرآن بما في ذلك التشبيه والاستعارة والكناية والتمثيل مستمدّة كما هو الشأن في الصورة عامّة من ظاهرة دفعها المتلقّي إلى الإسهام في إنتاج قسم من كلام الصورة وهو القسم الضمنيّ، وذلك بالانطلاق من القسم المصرّح به فيها. ولكن ما تختصّ به الصورة القرآنيّة هو أنّ التلقّي يُوجَّه توجيها صارما"[4]. وقد ذكر لويس ماران Louis Marin سلطان الصّورة في تجلّيها وسلطتها التي تُحدِث تحوّلا في العالم وتخلق لذّة إعادة اكتشاف ما هو ضائع[5]، لذّة يُحقّقها المثل باستحضاره الماضي واعتماده الصورة وَسيلةً.

---

[1] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، ج1، ص75.

[2] ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، ط1، جزآن، القاهرة، 1934، ج2، ص279.

[3] أُنظر Laurent Lavaud, L'image, textes choisies et présentés par Flammarion, Lavaud corpus, G.F, Paris, 1999,p19.

[4] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، ج2، ص657.

[5] أُنظر Louis Marin, Des pouvoirs de l'image, Glose, Editions de Seuil, 1993, 1995 Cèrès Editions, Tunisie, p10.

ذهب جون پول سارتر Jean-Paul Sartre إلى أنّ الصورة تُعلن عن غياب شيء[1] والصورة في المثل القرآنيّ تؤكّد الحضور في الغياب سردًا، والصور متعاقبة زمنيّا[2] وتتفرّع أحيانا عن صورة أمّ/ أصل لتنقل أحداثًا وتحوّلات في شكل لقطات وصفيّة فنيّة. ففي قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3] صوّر القرآن في مرحلة أولى النور القدسيّ للذّات الإلهيّة، وفي مرحلة ثانية نور المصباح، وفي مرحلة ثالثة نور زيت مُبارك، وما الإلمام بأكثر من جزئيّة في الصورة الواحدة إلاّ اختلاف مرجعه زوايا النّظر المتعدّدة[4] عبر جزئيّات تنقل مشاهد اكتمل فيها الوصف واجتمع التشبيه من خلال هيأة أو حركة أو علامة أو إيحاء يتمخّض رمزا وسحرا ومعنى.يقول الجرجاني: "اِعلم أنّ ما يزداد به التّشبيه دقّة وسحرًا أن يجيء فيه الهيآت التي تقع عليها الحركات والهيأة المقصودة في التشبيه على وجهيْن: أحدهما أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوها والثاني أن تُجرّد هيأة الحركة حتّى لا يُرادَ غيرها"[5]. فالتوظيف المكثّف للتشبيه ضروريّ لتجلية مقصد المثل[6].

---

[1] أُنظر.Jean-Paul Sartre, L'imaginaire, N.R.F, Gallimard, Paris, 1940, 4ème Partie, p161

[2] أُنظر لوران لافود ضمن حديثه عن Les Prises de vueLaurent Lavaud, L'image, Textes choisies et présentés, p19.

[3] النور 35/24.

[4] Laurent Lavaud, L'image, Textes choisies et présentés, p19.

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، شرح وتعليق وتحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الجيل، ط1، بيروت، 1991، ص ص 164- 165.

[6] أُنظر الهادي الجطلاوي، قضايا اللّغة في كتب التفسير: المنهج، التأويل، الإعجاز، دار محمّد علي الحامّي، ط1، تونس، 1998، ص 521.

وللرّمز سلطة في المثل شأنه شأن الصورة، سلطة تجميع أو تفريق تتحقّق عبر وظيفتيْ الاحتواء والإقصاء[1]. وقد اعتبر ليفي ستراوس Levi-Strauss أنّ من طبيعة المجتمع التّعبير بالرّمز في عاداته ومؤسّساته[2]، فالرّمز يدعو إلى اكتشاف تُخوم فيها من العجيب والغريب ما يشدّ إلى المثل باعتباره "تشبيه الأمر المجهول بالمعلوم والخفيّ بالجليّ، ليزداد المعنى إيضاحًا وتنكشف فيه غرابة الأمر وإبهام المعنى ولو من بعض الوجوه"[3].

لا تقتصر أهميّة القصص المثَليّ على الجماليّة الفنيّة بل تتجاوزها إلى العبرة الحاضرة إيحاءً متّخِذاً (أي القصص) الصّورةَ والرّمز أداتيْن لا غنى عنهما: الصّورة باعتبارها "تمثيلاً وقياسًا لما نعلمه بعقولنا على الّذي نراه بأبصارنا"[4] وآليّةً لقوّةٍ ما ووسيلةً لقدرة ما وأساسًا لسلطة ما[5]، والرمز باعتباره عالم تصوّرات غير مباشرة واستحضارا لعلامات غائبة قد يستحيل إدراكها تسعى قراءته إلى تجلية الخفيّ وفضح السرّ[6] ومقارنة المعنى بالحسّ من خلال فهم وظيفته الإيحائيّة التي تجعله من أساليب بلوغ المجرّد ولأنّ "مجال الرمزيّة المفضّل يكون اللاّمحسوس بشتّى أشكاله: الشكل اللاواعي والماوراء الطبيعيّ والفوق طبيعيّ واللاّواقعي"[7].

الرّمز في المثل القرآنيّ سخيّ في اقتباسه صُورًا من الحياة، ومتأصّل في الذكريات يسترجع ما غاب منها واندثر، ويُحرّك في المُتقبّل مشاعرَ الرّهبة والرغبة في لغة

---

[1] Encyclopediauniversalis, Corpus 17, Editeur à Paris, France. S.A. 1985, p 494.

[2] Claude Lévi- Strauss,Ibid, p495.

[3] محمّد حسين الصغير، الصّورة الفنيّة في المثل القرآني، دار الرشيد، بغداد، 1981، ص55.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، حقّقه وقدّم له محمّد رضوان الدّاية وفايز الدّاية، مكتبة سعد الدّين، ط2، دمشق، 1987، ص445.

[5] Louis Marin, Des pouvoirs de l'image, Glose, Editions de Seuil, 1993, 1995 Cèrès Editions, Tunisie, p10.

[6] أُنظر H.Corbin, L'imagination créatrice dans le soufisme d'Ibn Arabi, Flammarion , 1958, p126.

[7] جيلبار دوران، نفسه، ص ص 9-10.

غنيّة أسلوبًا ودلالة وإيحاءً، وهو يكشف معانيَ ويحجُب أخرى، ويَبوح ببعض الغيب ويجعل بعضه سرّا "لأنّ الرّمز لا يَشِي إلاّ بقدر ما يَكتُم فهو في الوقت نفسه كثافةٌ وشفافيّةٌ، بابٌ ينغلق وينفتحُ"[1].

إنّ للصورة الرمزيّة أهميّة أبرزها كلّ من التحليل النفسيّ وعلم الإناسة الاجتماعيّة[2]، وهذه الأهميّة تكمن في قدرة الصّورة على تقريب الحقائق العقليّة بالإدراك الحسّيّ البصريّ لتقريب الفهم وتعميقه في آن "فالصورة عندما تدخل في تركيب ما ضمن كوكبة من الصور تُنشئ رمزيّة يُحمَّلُ فيها الماءُ مثلا دلالات عديدة، فإذا هو الماء والدم والحياة والموت في آن"[3].

II. قضايا المَثَل في القرآن

1. الشّرك

ضُرب مثَل العنكبوت للمشركين﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[4] فبيت العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا قرًّا رغم أنّها اتّخذته حمايةً ونفعًا، لكنّه في الواقع لا يزيدها إلاّ ضَعفًا ووهنًا لأنّهلا يحميها ولا يدفعُ عنها ضرًّا،والمُشرك الّذي اتّخذ الصنم أو الشيطان وليًّا لن يجلب له وليّه نفعًا ولن يدفع عنه ضرًّا. يقول الترمذي: "إنّ الكافر عارٍ عن ستر الله يَخرُج إلى الله عاريًا فلا يُكسى، وتبدو فضائحُهُ وقبائِحُهُ على رؤوس الأشهاد"[5] وهي فضائح وقبائح أخلاقيّة وعُري من

---

[1] توفيق بكّار، المنهج الجدليّ في تحليل القصص "جدليّة الحكمة والسلطان"، ص 68.

[2] نفسه، ص41.

[3] محمّد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهليّة ودلالاتها، 2أجزاء، دار الفارابي، ط1، بيروت/ لبنان، 1994، ج1، ص76.

[4] العنكبوت 41/29.

[5] الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنّة، ص ص 38-39.

الفضيلة والإيمان. وهذا الفهم الّذي يسوقه الترمذي نصّيّ بحسب السائد الدينيّ والثقافيّ الإسلاميّ.

تُنتقى للمثل في القرآن رموز تخدم أهدافه وتطلّعاته، والنهي عن الشرك هدف تتطلّع إليه رموز حيوانيّة وبشريّة ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]. يلتقي العبد المملوك وبيت العنكبوت في رمزيّة الوهن والعجز، وهي صفات سلبيّة يتّصف بها من اتُّخذ وليًّا من دون الله، و"مثَل الوثنِ الّذي يعبدونه من دون الله كمثَل عبدٍ مملوك لا يقدر على دانق[2] ولا حبّة"[3] فكأنّ الله يُخاطب المشركين بقوله: "كيف سوّيتموه (أي الصنم) بي وأنا الرّازق أُنفق عليكم"[4]. يقول: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾[5] والمقصود بالمساكن الشرك.

2. العجز

عجز المعبود من دون الله عن بلوغ القدرة الإلهيّة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ

---

[1] النحل 75/16.

[2] الدّانِقُ والدّانَقُ: من الأوزان وهو سدس الدينار والدرهم. وفي حديث الحسن: لعن الله الدّانِق. كأنّه أراد النهي عن التقدير والنظر في الشيء التّافه الحقير. ابن منظور، لسان العرب، ج10، مادّة (دنق)، ص105. لجذر (دنق) في لسان العرب معان سلبيّة مثل دنوّ الشمس من الغروب وغؤورِ العين وهزالِ الوجه واصفراره من المرض ودُنوُّ الرّجل من الموت، والعرب تقول للأحمق دانق وللساقط المهزول من الرّجال دانق. أُنظر ابن منظور، نفسه، ص ص 105- 106.

[3] الترمذي، نفسه، ص33.

[4] نفسه، ص34.

[5] إبراهيم 45/14.

يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ[1] مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[2]. فمن صفات الذّباب الضعف والقذارة، وتضرب العرب مثلاً لأمر تحتقره بقولها: "ما الذُّبابُ وما مرقتهُ؟"[3]، ورغم وهن الذّباب فإنّ ما اتُّخِذ ربًّا من دون الله عاجز عن خلقه، وعاجز عن استرجاع ما يمكن أن يسلبه منه ذباب، فكيف يتقاسم والذّات الإلهيّة القدرة على الخلق؟! يقول الترمذي: "أراهم الله ضعفَ الذّباب وعجزه ليعلَموا عجز أصنامهم التي لا تتحرّك وليس فيها حياة، أنّها أقلّ وأضعف غياثاً عن الذباب فكيف تكون شريكة للقادر"[4] وهو وحده الخالق والمُحيي والمُميت ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[5] لذا فإنّ المشرك واهم لاعتقاده في غير قدرة الله، وهو فيسراب ووهم. يقول القرآن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[6] يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ! أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ[7] يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[8]. ويقول الترمذي: "ظُلمات بعضها فوقَ بعضٍ: ضرب مثَلَ صدره وقلبِهِ وعمله بظُلمة البحرِ والموج والسّحاب، فالبحرُ قلبه المُظلم والمتحيّر، والموج شِركُه، والسّحابُ

---

[1] يَسْتَنْقِذُوهُ: من الإنقاذ. نَقذته وأنقذتُه واستَنْقذتُهُ وتنَقّذته أي خلّصته ونجّيته. نفسه، ج3، مادّة (نقذ)، ص516.

[2] الحج 73/22.

[3] أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج2، ص278.

[4] الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنّة، ص36.

[5] الروم 27/30.

[6] القِيعَةُ: جمع القاع، والقاعُ ما انبسط من الأرضِ وفيه يكون السّراب نصف النّهار. ابن منظور، لسان العرب، ج8، مادّة (قيع)، ص304.

[7] لُجّيٌّ: "لُجّةُ البحر حيثُ لا يُدرَكُ قَعرهُ... ولُجُّ البحر عُرضُهُ.. ولُجُّ البحر الماء الكثيرُ الّذي يُرى طَرفاهُ.. وبحرٌ لُجاجٌ ولُجّيٌّ: واسع اللّجّ.. ولُجّ اللّيلِ شِدّة ظُلمته وسواده". ابن منظور، نفسه، ج2، مادّة (لجج)، ص354.

[8] النور 39/24-40.

أعماله السيّئة إذا أخرَج يده لم يَكدْ يراها أي لم يرها البتّة... فكذا قلب الكافر مُظلمٌ، في جسدٍ مُظلمٍ، لا يُبْصِرُ نُورَ الإيمانِ، ولم يُرِدْ أن يراه. ويُقالُ: سَمْعُهُ ظُلْمَة، وبصرُه ظُلمة، ولسانُهُ ظُلمة، وقلبه ظُلمة، فذلك قوله: "ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ""[1] وهو تفسير أقرب إلى التبسيط والسلخ والسلبيّة تجاه المخالف منه إلى تحليل الصور وفكّ الرموز واستجلاء المعاني والمفاهيم وبناء الآراء والمواقف.

في المثل القرآنيّ تكريس للذهنيّة الإسلاميّة عبر صور ورموز ومعان ذات دلالات وإيحاءات كثيرة، منها أنّ الإيمان بياض ونور، والعالم العلويّ عالم ملائكة، والعالم السفليّ عالم دنَس وشياطين "فالشيطان أسود أو يُخفي سوادًا"[2].

3. نقض العهد

النّقض في اللّسان "إفسادُ ما أبرمْتَ من عقدٍ أو بناءٍ، وهو نقض الحبل والعهد، ويُقال انتقض الجُرحُ بعد البُرء"[3]. إنّه هَدْمُ بناءٍ ومراجعةُ قولٍ ومخالفةٌ ونَكثٌ ومُروقٌ. وما الإسلام بعد الجاهليّة إلاّ شفاء وبرء من الشرك. ورد في القرآن: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا[4] تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى[5] مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ﴾[6] تشبيه مَن نقض العهد بالتي

---

[1] الترمذي،الأمثال من الكتاب والسنّة، ص ص 37-38.وفي ذلك تمادي في الشرك. تقول العرب: "لَجَّ في الأمرِ: تَمادَى عليه وأبى أن يَنْصرفَ عنه". ابن منظور، نفسه، ص354.

[2] جيلبار دوران، الأنتروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، ص67.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج7، مادّة (نقض)، ص242.

[4] الأنكاث: واحد الأنكاث نِكثٌ، وهو الغزل من الصوف أو الشعر، تُبرم وتُنسج، فإذا خَلَقَت النسيجةُ قُطِّعت قِطعًا صِغارًا ونُكثت خيوطها المبرومة، وخُلطت بالصوف الجديد ونَشِبت به، ثمّ ضُربت بالمطارق وغُزلت ثانية واستُعملت.نفسه، ص197.

[5] أربى من أمّة : أغنى من فريق.

[6] النحل 92/16.

نقضت غزلها خُمقًا فنكثت خيوطه بعد إبرامها[1]. وفي التاريخ الإسلاميّ من المنافقين من تبايع مع يهود بني قريظة لقتال النبيّ محمّد فلمّا كانت الحرب تبرّؤوا منهم. يقول القرآن:﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2] مشبّها المنافق بالشيطان الّذي "يَلعَب بالقِراء كما يلعب الصبيان بالجَوْز"[3]، ووجه الشبه بينهما الرياء والإغواء وحتّى اللّعنة.

لقد كان للمنافقين حضورٌ في الأمثال القرآنيّة باعتبارهم فئة تُفسد في الأرض.ومن سمات المنافق في التصوّر القرآنيّ أنّه يُكابر فلا يسمع نُصحًا ولا يعبأ بكلمة حقّ، وإذا سمعها ختم على أُذنيْه، وقد ضرب القرآن في ذلك أمثالا كقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ! كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ! فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[4] باعتبار أنّ المنافقين ينفرون من سماع القرآن كما ينفر الحمار الوحشيّ من صائده،وفي الاستنفار زيادة فعل ومبالغة ومغالاة.يقول ابن كثير(ت774هـ/ 1373م): شبّههم الله بالحُمر "فيما هم فيه من الغيّ والضلال والجهل كالدّواب السّارحة التي لا تفقه ما يُقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يُرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنّما تسمع صوته فقط"[5]. ولمثل هذه التّعابير والتّفاسير سياقاتها

---

[1] الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنّة، ص35.يقول: "كان لعمرو بن كعب بن سعد بنتٌ تُسمّى رَيْطة، وكانت إذا غزلت الصّوفَ أو شيئًا آخر نقضته لِحُمقها، فقال: وَلاَ تَنْقِضُوا: أي لا تنكثوا العهودَ بعد توكيدها كما نقضتْ تلكَ الحمقاءُ غَزْلها من بعد قُوّةٍ، من بعد إبرامه. أنكاثًا يعني نَقضًا، فلا هو غَزلٌ تنتفع به ولا صوف يُنتفع به، فكذا الذي يُعطي العهد ثمّ ينقضه لا هو وَفى بالعهد إذا أعطاه ولا هو ترك العهدَ فلم يُعطه".

[2] الحشر 16/59.

[3] عبد الرحمان بن الجوزي البغدادي، تلبيس إبليس، في ذكر تلبيس إبليس على المتديّنين بما يُشبه الكرامات، ضبط الأصل وعلّق عليه ووضع فهارسه محمّد الصباح، دار مكتبة الحياة، ط1، بيروت/ لبنان، 1989، ص511.

[4] المدثر 74/49-50-51.

[5] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمّد سلامة، 8ج، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999، ج1، ص480.

النصّيّة والثقافيّة في إطار إشكاليّات الصّراع الدينيّ بين المسلمين ومخالفيهم، لذا قد يتفهّم الباحث تشبيه القرآن مخالفيه من المشركين والمنافقين بالأنعام. يقول:﴿أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

فالمثل ينزع عن هذه الفئة صفة الإنسانيّة، بل ويبخل عليها حتّى بصفة الحيوانيّة. يقول القرآن: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[2] ويزيد من توبيخها وبخسها لأنّ من الحجارة ما قد يَلين، لكنّ قلوب هؤلاء لا تلين.ويتواصل ذمّ المنافقين في الأمثال القرآنيّة على هذا النّحو: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ !مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ! صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ! أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[3].

والنّار في المخيال الإسلاميّ إحالة على جهنّم و"بئس المصير". لكنّ النّار أداة تطهّر أيضا شأنها شأن الماء والتّراب، وهي في هذا المثل مصدر نورٍ يهدي الضّالّ فإذا اهتدى كانت نعمةً وإذا أبى صارت نقمةً. وقد ضُرب هذا المثل "للمنافق الّذي تكلّم بكلمة الإيمان ظاهرًا، فناكحَ ووارثَ بها، وحقن بها دمهُ ومالَهُ، فلمّا كان عند الموت ولم يَكُ مُصدّقًا بها سُلبت عنه، فتُرِك في كرْبٍ وظُلمةٍ، فتحيّر فيها كما كانت مُعاملته في الدّنيا في حقّ اللهِ"[4].

---

[1] الفرقان 44/25.

[2] البقرة 74/2.

[3] البقرة 16/2- 17- 18- 19.

[4] الترمذي، نفسه، ص18.

يتضمّن المثل مقابلات مختلفة شأن: أضاء/النور ≠ ظُلمات/ لا يبصرون، فالإضاءة والنور رمز الهدى والإيمان أمّا الظلمات فرمز العمى والضّلال، إنّه الفارق الرمزيّ بين الإيمان والكفر. يقول ابن كثير: "والتشبيه هاهنا في غاية الصحّة لأنّهم بإيمانهم اكتسبوا أوّلا نورًا ثمّ بنفاقهم ثانيًا أبطلوا ذلك النورَ فوقعوا في حيرة عظيمة فإنّه لا حيرة أعظم من حيرة الدّين"[1]. وقد وظّفت هذه الآيات رمزيّا عنصريْن من عناصر الطبيعة النّار وما ترمز له من نور، والماء وما يرمز له من خصب وحياة. وهذا التوظيف القرآنيّ عريق أصيل لأنّه يستمدّ صوره ورموزه ومعانيه من ثقافات الشرق وحكمتها الأصيلة.

4. الخسران

يرى القرآن أنّ العلمَ الّذي لا يُنتفع به كالعمل الّذي لا يُنتفع به، وأعمال المشركين في رأي القرآن لا يُنتفع بها ولا تُثمر نفعًا في الدّنيا والآخرة. يقول فيها:﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾[2] مشبّها إيّاها برمادٍ اشتدّت به الريح فنثرته بلا رجعةٍ، وفي الرماد خفّة واضمحلال وتلاش، "الكفّار اتّخذوا أهواءهم آلهةً من دون الله وعملوا بأهوائهم، فجاءت ريحُ الأهواء فذَرتْهُ في النّار"[3] وفي تناثُر الرّمادِ ضياع الوزن، وللوزن بُعدٌ رمزيّ في الثقافة الإسلاميّة يحيل على ثقل الحقّ والفلاح. يقول القرآن: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ !وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[4]. أمّا الخسارة في رمزيّة الرّماد فمزدوجة، خسارة في الدّنيا وخسارة في الآخرة، وتخدم رمزيّة الرّماد الرّسالة المثَليّة لأنّ فيها ترجيحًا

---

[1] ابن كثير، نفسه، ج1، ص186.

[2] إبراهيم 18/14.

[3] الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنّة، ص 27.

[4] الأعراف 8/7- 9. وانظُر سورة المؤمنون/23 الآيتان 102- 103. وسورة القارعة/101 الآيات 6-7-8-9-10-11.

لكفّة سيّئات الأعمال وإشارةً إلى أنّ ما اتّفَقَ عليه الكفّار وما اجتمعوا عليه من شرك وتكذيب بآيات الحقّ إنّما يذهب هباءً، لِم لا والرّماد في تفسير الأحلام "مال حرام، وقيل هو رزق من قبل سلطان، فمن رأى الرّماد فإنّه يتعب في أمر السلطان ولا يحصل له إلاّ العناء، وقيل هو علم لا ينفع"[1].

كانت بعض قبائل العرب قبل الإسلام إذا أرادت التّحالفَ والاشتراكَ في أمْرٍ أخذت حفنة من طِيبٍ أو دَمٍ أو رمادٍ فأدخلت فيها أياديها[2]، أمّا الرّيح فقضت على تحالُفهم رمز القوّة الطبيعة التي سُخّرت للأنبياء (كسليمان)، وهي في التصوّر القرآنيّ أداة ربّانيّة لمعاقبة الكافرين وإلحاق الأذى والخسارة بهم وتطهير الأرض من أدران فسادهم.يقول القرآن: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[3].إنّ المشبّه في هذا السياق القرآنيّ الحياة الدّنيا والمشبّه به نبات الأرض أحياه الله بالماء ثمّ قضى إتلافه بالرّيح، ووجهُ الشّبه سرعة الزوال بعد نَضارةٍ[4]، فبفضل ما أُنزل من ماءٍ يخرج النبات والثمر من الأرض فيظنّ أهلها أنّهم حاصدوها لا محالة لكنّ ريحًا تأتي عليها فتيبس أوراقها وتَتْلف ثمارها ويتحوّل الخصب جدبًا وتنقلب النضارة يُبوسةً وتَلفًا. ففي الماء قداسة وخصب وحياة، وفيه طهارة لأنّه يُطهّر الجسد من خطاياه، والنّفس من أباطيلها وشهواتها. ورد في

---

[1] عبد الغني النابلسي، تعطير الأنام في تعبير المنام، تحقيق معروف زريق، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1990،ص29.

[2] أُنظر جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2، ص647.

[3] الكهف 18/ 45.

[4] يقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾الحديد 20/57. ويقول: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾يونس 24/10.

القرآن ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾[1] فالماء كلمة حقّ أُنزلت من السّماء بعد أن طغى الفساد على الإنسان وصعدت شهواته على السطح وبانت أهواؤه فعمل لدنياه وتجاهل آخرته، واغترف من الحياة لذّاتها وشهواتها التي تتوفّر له نقمةً إلى حينٍ حتّى ضُرب له مثل البعوضة ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[2]، ووجه الشّبه التّحقير لأنّ العرب تقول: "للفتى مخّ بَعوضة"[3] كناية على بلادة ذهنه. يقول ابن كثير: إنّ "البعوضة تَحيا ما جاعتْ، فإذا سمنت ماتت وكذلك مثلُ هؤلاء القوم الّذين ضُرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلؤوا من الدّنيا أخذهم الله"[4]. والبعوض أداةٌ ضَرب بها الربّ فرعونَ وقومَه، وخارقةٌ من خوارق آياته وخوارق عصا هارون يمدّها على المصريّين ليُخرجَ بني إسرائيل من بينهم، فكانت الضربةُ الأولى ماءً مُنقلبًا دمًا والضربةُ الثانية ضَفادعَ والضربة الثالثة بعُوضًا إذ قال الربّ لموسى: "قُلْ لِهَارُونَ: مُدَّ عَصَاكَ وَاضْرِبْ تُرَابَ الْأَرْضِ فَيَصِيرَ بَعُوضًا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ"[5]، فكان البعوض شرّا على النّاس والبهائم.

ولا يخفى ما في هذا التمثيل القرآنيّ من تداخل السياقات الاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة المشحونة قصصًا وخرافة وعبرة ورمزا، وهو تمثيل لم يختصّ به القرآن

---

[1] الرعد 17/13.

[2] البقرة 26/2.

[3] أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج1، ص152.

[4] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 207.

[5] سفر الخروج 6/8-23.

وحده بل تقاطعت فيه وتفاعلت أغلب الكتب المُقدّسة، وعكست من خلاله بيئة طبيعيّة وخياليّة عاشها الإنسان في العصور القديمة في انسجام ووئام.

5. الازدواجيّة

الازدواجيّة جمع بين أضداد جَمْعًا يسمح بالكشف عن ثنائيّات تتكامل في إبلاغ معنى واحد وإيضاحه "فالتضادّ بنية دالّة، ودلالتها ليست في معنى الكلمتيْن، وإنّما في الربط بينهما، وإنشاء نظام علاقات بين طرفيْ التّضادّ"[1] شأن النور والظلمة اللّذيْن يرمزان معا إلى الإيمان. ومدار هذا التّضادّ فئتان: الأولى آمنت والثانية كذّبت بعد أن خضعتا لابتلاء إلهيّ، والابتلاء وفق ابن كثير الأسقام والنوائب ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] والمُلاحظ من سياق الآية أنّ المثَل ضُرب في البيان والابتلاء والموعظة وليس في الأسقام والنوائب فقط كما ذهب ابن كثير.

أ- في ثنائيّة الثّواب والعقاب

وردت الصّور المثليّة على نَحوٍ يسمح ببيان هذه الثنائيّة لكلا الفريقيْن﴿مَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] فالله يضاعف الثّواب للمُنفق في سبيله مثلما تتضاعف الحبّة، المنفق كمنْ يزرع ليَحصد وربحه المؤجّل وَفير، وفي هذا المعنى المثَليّ "إشارة إلى أنّ الأعمال الصّالحةَ يُنمّيها اللهُ لأصحابها كما يُنمّي الزّرع لمن بذره في الأرض الطيّبة،"[4] المثَل في هذا السياق حثّ على الصّدقة وتنمية الخصب المادّيّ والمعنويّ: خِصْبٌ في الدّنيا وخصبٌ في الآخرة. ألم تجلب رؤيا الريّان

---

[1] حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، الدّار التونسيّة، تونس، 1988، ص ص 170-179.

[2] النور 34/24.

[3] البقرة 261/2.

[4] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 691.

ملك مصر سنابِلَ سبع خضر في الحُلم سبع سنوات من الخير فيها غيثٌ وخصبٌ ورفاهية؟ وقد جاء في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]. إنّه خصب مقدّس لارتباطه بالعدد سبعة "أشهر الأعداد لدى كثير من الشعوب القديمة"[2].فقد رسم هذا العدد معالم الأسطورة فكان عددًا مقدّسا جَمَع بين المتناقضات وزاوج بين المتنافرات فقرَّبَ الأرضَ من السّماء في صفة واحدة والجبال والبحار في ميزة موحدّة وغيرها من المخلوقات مُعلنًا دقّة الخلق ورَسْم الله مُنشآته كأبدع ما يكون الرّسم، فتجتمع العجائب سبعًا، عدد له مرجعيّات ورموز دينيّة وثقافيّة مختلفة[3].

ضُربت أمثال قرآنيّة كثيرة للمؤمنين المنفقين أموالهم في سبيل الله مقابل من يُنفقها رِياءً﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[4] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[5] فقد ضُرب في هذا السياق مثَلٌ بمثل من خلال صورتيْن معبّرتيْن عن أنّ لا مَنَّ في الإسلام على من أحسنتَ إليه ولا أذًى له لأنّ المنّ والأذى يُضيعان أجر العطاء. ويأتي الحديث ليدعم هذه القيمة إذ يقول النبيّ محمّد: "ثلاثةٌ لا يُكلّمهم اللهُ يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يُزكّيهم، ولهم عذابٌ أليم: المنّانُ بما أعطى، والمُسبل إزاره، والمُنفق سلعته بالحلف الكاذب"[6] فمن يتصدّق بمال حتّى يُرائي به النّاس طمعًا في مدحٍ أو شُهرة لا عن إيمان أُبطلَتْ صَدَقتُه وأُزيلتْ كما يُزيلُ المطرُ

---

[1] يوسف 46/21.

[2] محمّد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهليّة ودلالاتها، ج2، ص197.

[3] أُنظر المرجع نفسه، ج2، ص ص197-198.

[4] جمعُ صفوانة. وقيل الصفوان يُستعمل مفردًا أيضًا وهو الصّخر الأملس.

[5] البقرة 264/2.

[6] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص693.

الشّديد التّرابَ من على الصّخر الأملس، وبهذا يتعاضد النصّان الإلهيّ والنبويّ في إنتاج المعنى والقيمة بُعدا من أبعاد الدين الاجتماعيّة والأخلاقيّة.

ومن الأمثال القرآنيّة ما جاء داعما للنّبي في أداء رسالته، فقد مثّل القرآن الّذين يُنفقون أموالهم في عداوة النّبي بالريح السّموم فيها بردٌ يُصيب زرع من ظلموا أنفسهم بعِداء الحقّ فيُهلكُ حرثهم،ومَثّل أموال الكافرين التي يُنفقونها ابتغاء دفع الضّرر والبأس عنهم بريحٍ تحرق الزّرع وتُذهب الثمر عقابا في الدنيا والآخرة. يقول ابن كثير: "إنّ البرد الشّديد – سيّما الجليد- يحرِقُ الزروع والثمار كما يُحرق الشيء بالنّار.. والسّفعة[1] إذا نزلت على حَرثٍ قد آن جِداده[2] أو حصادُهُ دمّرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته.. كذلك الكفّار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدّنيا"[3]. وللرياح في الثقافة الإسلاميّة ثمانية أوجه: أربعة منها رحمة وهي النّاشرات والمُبشرات والمرسلات والذّاريات، وأربعة عذاب وهي العقيم والصّرصر في البرّ والعاصف والقاصف في البحر،وجاء في المرويّ عن النبيّ محمّد أنّه قال: "لا تَسُبّوا الرّيح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللّهمّ إنّا نسألك مِن خيْرِ هذه الرّيحِ وخير ما فيها وخير ما أُمِرتْ به، ونعوذُ بك من شرّ هذه الرّيحِ وشرّ ما فيها وشرّ ما أُمِرتْ به"[4] لأنّ الرّيح يُرسِلها الربّ رحمةً أو نقمةً، كما جاء في سفر الخروج أنّ الله عاقبَ أهلَ مصر بأن ساقَ على أرضِهم ريحًا شرقيّةً حمَلَت

---

[1] سَفَعتهُ النّار والشمسُ والسَّموم لَفَحته لَفْحًا يسيرًا فغيّرت لونه وسَوّدتهُ. ابن منظور، نفسه، ج8 مادّة (سفع)، ص157.

[2] الجَدادُ والجِدادُ: أوانُ الصِّرامِ. صِرامُ النّخلِ وهو قطعُ ثمرها. وقيل: هو الجَدادُ والجِدادُ والحَصادُ والحِصادُ والقَطاف والقِطافُ والصَّرامُ والصِّرامُ. نفسه، ج3، مادّة (جدد)، ص 112.

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 106.

[4] أبو زكريا النّووي، رياض الصّالحين من كلام سيّد المرسلين، تحقيق أسامة صلاح الدّين منيمنة، مكتبة المنار، تونس، (دزت)، ص578.

جَرادًا أَضرَّ بخصبها ثمّ صيَّرها ريحًا غربيّةً طَرحت الجرادَ في البحر[1] بما يعني أنّ للنصوص الدينيّة الكتابيّة معين مشترك من التمثيل والرّمز.

ب- في ثنائيّة الطيّب والخبيث

ورد في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ!تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، اُختُلف في شأن الكلمة الطيّبة فقيل هي الشهادة والتّوحيد وقيل القرآن وقيل الإيمان، واختُلف في شأن الشجرة الطيّبة، فقيل هي النخلة وقيل التّين والعنب والزيتونة وهي كلّ شجرة ثمرتها طيّبة، ومن صفات هذه الشجرة في القرآن الثّبات والامتداد لأنّ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهو ثبات الإيمان لأنّ في الثبات إقامة وتثبيتًا للفؤاد "فكلّما كان البرهانُ والدِّلالة أكْثَر على القلب، كان القلب أسكنَ وأثبتَ أبدًا"[3]. والله في الخطاب القرآنيّ يُثبّت الّذين آمنوا على إيمانهم فيُميّزُ الشجرة الطيّبة بالقوّة والامتداد في العالمَيْن العلويّ والسّفليّ،تنمو وتعلو في اتّجاه النعيم كثبات الإنسان على الإيمان المُوصل إلى النعيم بالكلمة الطيّبة والأعمال الصّالحة، لِم لا وللكلمة سلطتها، سلطة للكلمة الطيّبة وأخرى للكلمة الخبيثة. ورد في الآية: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[4] قيل إنّ الكلمة الخبيثة هي كلمة الشّرك والضّلال، وقد اختلف المفسّرون في شأن الشجرة الخبيثة فقيل شجرة الحنظل في مرارتها، وقيل هي أعشاب شوكيّة تنبت في صحراء الجزيرة لا جذور لها ولا أوراق ولا فائدة منها، وقيل هي شجرة الثّوم، وقيل الكمأة أو الطّحلبة. لكن لم يأت وصف هذه الشجرة مطوّلا كما هو الشأن بالنسبة إلى الشجرة الطيّبة التي

---

[1] أُنظر سفر الخروج 10/ 5-21.

[2] إبراهيم 14/24- 25.

[3] ابن منظور، لسان العرب، ج2، مادّة (ثبت)، ص 19.

[4] إبراهيم 14/26.

وُصفت وصفًا شافيا. يقول الترمذي: "مثَل الكافر كشجرة خبيثة طعمها مُرّ خبيث لا خير ولا أصل"[1].

وفي هذه الأمثال والتشبيهات إحالات ومرجعيّات دينيّة وثقافيّة دالّة لم تختصّ بها الأدبيّات الإسلاميّة وحدها بل اشتركت فيها مع سائر الأدبيّات الدينيّة والأسطوريّة القديمة خاصّة في المحضنيْن الإغريقيّ والساميّ، ألم تكن عشتارت إلهة الخصب ممثّلة في النخل والماء؟ فكانت "مُنتجة الخضرة والنبات واقترنت بعبادة النخل والأشجار عند الساميّين منذ قديم الزمان"[2]، وذُكرت في القرآن شجرة الزقّوم في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[3]، "فشجرة الزّقوم السحريّة، مخبأ الشياطين، يخرج من غصونها شياطين مختلفة الأنواع والأشكال، كان (أهل الجاهليّة) يخافونها، وشجرة ذات أنواط شجرة مقدّسة يحبّونها ويقدّسونها، وشجرة السدر هي أيضًا مقدّسة عندهم، يُجلّونها ويحترمونها، فيضعون منها على الموتى لتطهيرهم"[4].

ج- في ثنائيّة النّوروالظّلمة

هي في الأصل ثنائيّة كونيّة وظّفها القرآن لدعم المخيال الإسلاميّ في مسائل الإيمان والكفر والحقّ والباطل والهداية والضلال. وقد ورد في الآية: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ

---

[1] الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنّة، ص 45.

[2] حسين الحاج حسن، الأسطورة عند العرب في الجاهليّة، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1988، ص 134.

[3] الدخان 43/44- 44- 45- 46.

[4] حسين الحاج حسن، نفسه، ص 134.

الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] المشبّه في هذا المثل نورُ الله وقد ورد تشبيهه توالُدًا لسلسلة من الصُور الدلاليّة النور فيها عَوْدٌ على بدء، انتقل التشبيه القرآنيّ من الوصف المشهديّ الإجماليّ إلى الوصف التفصيليّ، من صورة أولى هي صورة نور الله، إلى صورة ثانية هي صورة المشكاة، إلى تفريع وتلاحق في الصّور: صورة المصباح داخل زجاجة، الكوكب الدرّيّ، الزّيتونة، الزّيت، النّار، النّور.

لقد اجتمع ضوء المصباح وضوء الزّيت وضوء الزجاجة غايةَ الوضوح شَأْنَ الآيات القرآنيّة التي شكّلت برهانًا واضحًا وحقّا مبينًا من الله يُضيء الأفئدة كما أضاء نور الله ظُلمة الأرض والسّماوات حتّى عمّ النّور "نور على نور". والتشبيه بالنور والسراج وزيت الزيتون وارد ذكره قبل القرآن في الكثير من الصحف المقدّسة، ألم يجعل الربّ لبني إسرائيل فريضة لمّا خاطب موسى في سفر الأحبار قائلا "مُرْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَأْتُوكَ بِزَيْتِ زَيْتُونٍ صَافٍ مَدْقُوقٍ لِلْمَنَارَةِ لِيُوقَدَ بِهِ السِّرَاجُ دَائِمًا"[2]؟

تخيّر المثَل القرآنيّ صورة مبدعة تراكم فيها النّور توالُدًا وإشعاعًا في قوله "نُورٌ عَلَى نُورٍ" مقابلَ صورة ثانية لا تخلو من إبداع أيضا تراكمت فيها الظلمة سَوادًا قاتما﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ[3] يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[4] وهذا التوليد القرآنيّ الثنائيّ يدعم رمزيّة الصّورة في اتّجاه التضادّ الظاهر لأنّ شقّيها يجتمعان في نقطة لا تخلو من ائتلاف وتكامل في بيان القدرة الإلهيّة. يقول ابن عربي: إنّ "الطواغيت يُخرجون الّذين كفروا من النور وهو الكُفر الأدنى بالنسبة

---

[1] النور 35/24.

[2] سفر الأحبار 23/38-24.

[3] لُجّيٌّ: "لُجّةُ البحر حيثُ لا يُدرَكُ قَعرهُ... ولُجُّ البحر عُرضُهُ.. ولُجُّ البحر الماء الكثيرُ الّذي يُرى طَرفاهُ.. وبحرٌ لُجاجٌ ولُجّيٌّ: واسع اللّجّ.. ولُجّ اللّيلِ شِدّة ظُلمته وسواده". ابن منظور، نفسه، ج2، مادّة (لجج)، ص354.

[4] النور 40/24.

إلى الكُفر الأقصى الّذي هو بالنسبة إلى الكفر الأدنى ظلمات بعضها فوق بعض"[1] وقصد بالطواغيت الشياطين، وبالكفر الأدنى ما قلّ من المعاصي، أمّا الكفر الأقصى فهو تراكم المعاصي وتواترها دون توبة.

لقد ورد النور بمعنى الحقّ والهدي في مقابل ظلمات الجهل والضّلالة. وفي المقابلة طرفان: الأوّل منهما حركة تحوّل من ظلام إلى نور، والثاني سُكون في حالة واحدة الظّلمة والضّلالة، يظهر ذلك جليّا في قول القرآن "فأحييناهُ" و"ليْس بِخارجٍ منها"، فالظلمة فقدان بصيرة وضلالة. ولا يتوقّف المثَل القرآنيّ عن طرح أسئلة إجاباتها محسومة حسمتها الصورة الرمزيّة في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهْوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهْوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2] ؟

د- في ثنائيّة السّمع والبصر

للحواسّ دور في تحصيل المعرفة وبناء المواقف الإنسانيّة في الحياة والوجود والمآل، وقد ذكر المثلُ القرآنيّ حاسّتَيْ السّمع والبصر في هذا الاتّجاه الإنسانيّ المُشكل مُشتقَّيْن من صفتيْن من صفات الله السميع البصير﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾[3] والفريقان كافر شقيّ ومؤمن سعيد، الكافر في صورة الأعمى الأصمّ والمؤمن في صورة البصير السميع ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾[4] وفي هذا

---

[1] محي الدّين بن عربي، الرسائل الإلهيّة، تحقيق قاسم محمّد عبّاس، دار المدى للثقافة والنشر، سورية/ دمشق، ط1، 2007، ص45.

[2] النحل 76/16.

[3] هود 24/11.

[4] المدثر 31/74.

التعبير تأكيد على أنّ الأمثلة في المنظور الدينيّ الإسلاميّ تُضرب مقابلة وعبرة لتنبيه الإنسان وإرشاده إلى سبيل الخير في الدنيا والآخرة.

إنّ العمى في التصوير الدينيّ غشاوة تحجب الحقّ، يقابله البصر باعتباره إدراكا بالفؤاد وبصيرة تقود إلى الحكمة والهداية، لكنّ الكفّار معرضون بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[1] لأنّ سماعهم بالأذن لا بالفؤاد، ليس كسماع المهتدي سماع الإدراك والاستجابة ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[2]. فالسمع والبصر أداتان لتحصيل المعرفة، وبخاصّة المعرفة الإلهيّة المتضمّنة صفات الله، والسمع والبصر من أهمّ مراتب الإدراك واليقين ظاهرًا وباطنًا في ارتباطهما بالفؤاد والبصيرة،حتّى أنّ نقائص البصر تكمّلها البصيرة التي تتخطّى الظاهر إلى الباطن شأن المتصوّفة، والكمال أن تجمع بين الظاهر والباطن، يقول الباقلاّني عن المتصوّفة: هم الّذين "أبْصَرُوا فأَقْصَروا وعلموا أنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولائك مسؤول عن الخير والشرّ ومُحاسبٌ على مثاقيل الذرّ"[3].

هـ- في ثنائيّة الحياة والموت

ينفتح الإيمان في الأمثال القرآنيّة على ثنائيّة الحياة والموت في أبلغ وأعمق معانيها، فقد أخبرت الأمثال عن مراحل حياة الإنسان المتأرجحة بين يقظة الفؤاد والبصيرة إيمانًا وتبلّدهما وموتهما جهلاً، وذكّرت بالموت الجسديّ وما يتلوه من بعث وحشر وحساب، حثًّا وزجرًا ترغيبًا وترهيبًا كما في قول القرآن: ﴿الْقَارِعَةُ! مَا الْقَارِعَةُ! وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ! يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ! وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[4]، وفي قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ

---

[1] البقرة 93/2.

[2] النور 51/24.

[3] محمّد أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص302.

[4] القارعة 1/101- 2- 3- 4- 5. القارعة: هي النّازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم، ولذلك قيل ليوم القيامة القارعة. ابن منظور، لسان العرب، ج8، مادّة (قرع)، ص 265. والعِهن: الصوفُ المصبوغ. نفسه،

نُكُرٍ! خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ! مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[1]. يحمل لنا المثَل الأوّل صورة النّاس كالفراش يتصادم ضعفًا ووهنًا وارتباكًا بلا وِجهة، ويحمل الثاني صورة الجراد المنتشر في خوفٍ وعُسرٍ، وفي الصورتيْن بعث وحشر وحيرة ومصير.

جاء في اللّسان "انبثّ الجراد في الأرضِ انتشر"[2] كما انتشر يوم جعله الربّ عقابًا لفرعون وقومه وضرْبة ثامِنةً لهم عندما أَوْحَى لِموسى أنْ "مُدَّ يَدَكَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ لِيَأْتِيَ الْجَرَادُ فَيَصْعَدَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ وَيَأْكُلَ كُلَّ عُشْبِ الْأَرْضِ"[3] فهذه الصور المثَليّة مبثوثة في النصوص الدينيّة، موظّفة في القرآن وغيره، إرثا مشتركًا في تصوير رحلة الإنسان ومعاناته في الحياة والموت.

خاتمة

المثل في القرآن يكاد يكون شاملا كلَّ قضايا الإنسان، بدايته ونهايته، حياته وموته، إيمانه وكفره، استقامته وانحرافه في سياق تاريخيّ وثقافيّ يتداخل فيه المقدّس والدنيويّ، هذا الشمول يستوعب وظائف متعدّدة منها: الوظيفة التّواصليّة وغايتها إبلاغ أو تذكير أو تنبيه من خلال حدث أو خبر أو حكمة، والوظيفة التّأثيريّة وغايتها التّأثير بالتّرغيب أو التّرهيب أو الاستدراج أو التّنفير من خلال قصّة أو عبرة أو تخويف، والوظيفة الثقافيّة وغايتها مجالات وحقول

ج13، مادّة (عهن)، ص297. والنَّفَشُ: الصّوف، والنَّفْشُ: مَدُّكَ الصوفَ حتّى ينتَفِشَ بعضُه عن بعض. نفسه، ج6، مادّة (نفش)، ص357.

[1] القمر 54/ 6- 7- 8. النُّكُرُ: الأمر الشديد. ابن منظور، نفسه، ج5، مادّة (نكر)، ص233.والأجداث والجَدَثُ: القبر. نفسه، ج2، مادّة (جدث)، ص128. والمُهطِعُ: الّذي ينظُر في ذُلٍّ وخشوع. نفسه، ج8، مادّة (هطع)، ص372.

[2] ابن منظور، نفسه، ج2، مادّة (بثث)، ص 114.

[3] سِفر الخروج 10/5-21.

ودلالات للحلال والحرام والمرغوب والممنوع من خلال علامات ورموز وإشارات وقصّ وتخييل.

المثَل في القرآن يتخطّى حدود زمانه ومكانه لينفتح ويتفاعل ويتضمّن ويتقاطع، ليجعل الغائب حاضرًا والحاضر غائبًا والمعقول محسوسًا والمحسوس مُجرّدا، غايته القصوى الأثر في النفوس مهما كانت طبيعة النفوس واستعداداتها، وهو مُشبع بمعجم يسخّر من ألفاظ اللغة وتراكيبها ومفاهيمها ومصطلحاتها ما به تتأسّس سلطة هي سلطةُ المثَل خاصّة به يستمدّها من ظاهرة أو صورة أو رمز أو إحالة أو تكرار أو لون أو عدد.

قام لدينا برهان من دراسة المثَل في القرآن على تشعّب زوايا النظر في مسألتَيْ المثَل النصّيّة والثقافيّة فضلا عن مسألته الدينيّة الإسلاميّة لما للقرآن في لغته من إعجاز وفي عقيدته من رؤية للإنسان والأشياء والعالم.